﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ [الكهف: 5]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من تمام الإنصافِ في الوعيد أن تلحق به علَّتُهُ

بعد أن ذكر النَّظمُ الكريمُ الوعيدَ والإنذار للذين نسبوا لله تعالى الولد، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾ [الكهف: 4]؛ أتبعه ببيان أنَّ قولهم ذلك نابعٌ عن الجهل، متضمِّنًا بيان علَّة ذلك الإنذار والوعيد الشَّديدين، فبعد الإنذار استأنف مُعلِّلًا في جواب ﴿مِنْ﴾، كأنَّه قال: ما لَهُم خُصّوا بهذا الوعيد الشَّديد؟ فقال تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْۚ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَبُرَتْ﴾: (كبر) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى خِلافِ الصِّغَرِ، ويُقالُ: أَكْبَرْتُ الشَّيْءَ: اسْتَعْظَمْتُهُ[2]، وكَبُرَ بالضم يَكْبُرُ، أي: عَظُمَ، فهو كَبير، فإذا أفرط؛ قيل: كُبّارٌ بالتَّشديد[3]، والكَبيرُ بحسب ما يُضاف إليه؛ فقد يكون صغيرًا في جنب شيءٍ، وكبيرًا في جنب غيره، وأصلُ ذلك أن يُستعملَ في الأعيان، ثم استُعير للمعاني، فتُستعمل الكبيرة فيما يشقُّ، ويصعب نحو: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ﴾ [الشورى: 13]، وأمّا قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾؛ ففيه تنبيهٌ على عِظَم ذلك مِن بين الذُّنوبِ، وعِظَم عقوبته[4]، أي: عَظُمَت مقالَتُهم في الكُفر[5].

2) ﴿كَلِمَةً﴾: (كلم) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى نُطقٍ مُفهمٍ، تَقول: كَلَّمْتُهُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 8.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(3) الجوهري، الصحاح: (كبر).
(4) الرّاغب، المفردات: (كبر).
(5) الإيجي، جامع البيان: 2/ 424.

أُكلِّمُهُ تَكْليمًا؛ وهو كَليمي؛ إذا كَلَّمكَ أَوْ كَلَّمتَهُ، ثُمَّ يَتَّسِعونَ، فَيُسَمّونَ اللَّفظَةَ الواحدَةَ المُفهمَةَ كَلمَةً، والقِصَّةَ كَلِمَةً، والقَصيدَةَ بِطولِها كَلِمَةً[1]، والكَلامُ يقعُ على الألفاظِ المَنظومةِ، وعلى المَعاني التي تحتها مجموعة، وعند النَّحويين يقعُ على الجُزءِ منه، اسمًا كان، أو فعلًا، أو أداة، والكلمةُ تقعُ على كلِّ واحدٍ مِن الأنواع الثَّلاثة، قال تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾؛ كتسميتهم القصيدة كَلِمَةً، فالكَلمَةُ هاهنا القضيَّة، فكلُّ قضيَّة تُسمَّى كلمةً، سواء كان ذلك مقالًا أم فِعالًا[2]، والمعنى: "كبُرتْ مقالتُهم كلمةً، والمُرادُ بهذه الكلمةِ هو قولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾"[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

زعمُ البُنوَّة للإله جـهـلٌ مـحـضٌ مُتأصِّل بقائليه

يُخبر اللهُ تعالى عن هؤلاءِ الذين ادَّعوا الولدَ لله تعالى أنَّ قولَهُم ذلك لم يأتِ عن علمٍ، بل إنَّما يصدرُ عن جهلٍ مُفرطٍ وتقليد للآباء[4]، أي: "ليس عند هؤلاء المشركين شيءٌ مِنَ العلمِ على ما يَدَّعونه للهِ مِن اتِّخاذِ الولدِ، كما لم يكن عند أسلافهم الذين قلَّدوهم؛ عَظُمَت هذه المقالةُ الشَّنيعةُ التي تخرجُ مِن أفواهِهم، ما يقولون إلّا قولًا كاذبًا"[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الجملة في صدر الآية عمّا قبلَها:

الـوعـيـدُ جـديـرٌ بكلام مستقلٍّ

فصلَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾؛ سيقت للإخبار بمضمونها، وبيان علَّة الإنذار[6]، وتوضيح

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كلم).
(2) الرّاغب، المفردات: (كلم).
(3) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 320.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 7/ 6.
(5) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 294.
(6) السّمين، الدر المصون: 7/ 439، والبقاعي، نظم الدرر: 12/ 8.

حال الذين ادَّعوا أنَّ لله ولدًا تعالى الله عما يصفون، فهي "مستأنَفةٌ لبيان حالِهم في مقالهم، أي: مالهم بذلك شيءٌ من علم أصلًا"[1]، فهذا الحال يُبيِّن شدَّة شناعة كفرهم، فهم يقولون على الله تعالى الكذبَ، ويفترون الضَّلالَ.

دلالةُ ﴿مَّا﴾ وأثرها في المعنى:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ النَّفي بـ ﴿مَّا﴾ والجملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ دون أن يقول: (لا يعلمون) للدَّلالة على رسوخ هذا النَّفي فيهم، فحقيقتهم أنَّهم خُلوٌ من العلم به، وليس المرادُ بيانَ تجدُّد جهلهم، بل هو ثابت لهم مِنَ الأصل، فـ ﴿مَّا﴾ هنا لنفي حقيقة عِلْمِهم من غير تقييد بزمن، فهي آكدُ في النفي، وأدلُّ على الإطلاق، وهو وجهٌ من وجوه استعمالها؛ إذ يُؤْتى بها لزيادة الاهتمام بالنفي[2].

من الحقائق الثابتةِ رسوخُ جهلِ الكافرين والمشركين بالله تعالى

سرُّ تقديم الجار والمجرور على العلم:

قدَّم النَّظمُ الجليلُ شبهَ الجملةِ مِنَ الجارِّ والمجرور ﴿لَهُم﴾ و﴿بِهِۦ﴾ على الاسم في قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾، وأصل الجملة: ما مِنْ علم لهم به، فيقتضي نظمُ الجملة العربيَّة تأخيرَ الاسم النَّكرة؛ لأنَّه لو قُدِّم؛ لم يكن دالًّا على مُعيَّن مُعرَّف، فيكون الحكم عليه حكمًا على مجهول، وهو غير مُفيد، فوجَب تأخيره وتقديم شبه الجملة؛ لأنَّ المهمَّ هو المُخبَر بهِ لا المُخبَر عنه، وهو أنَّ الانتفاء متعلِّق بهم، ثم أتبعه بذكر المنفيِّ، فتَقديمُ ﴿لَهُم﴾ هنا للاهتمام، وتقديم ﴿بِهِۦ﴾ لبيان شناعة قولهم شيئًا متعلِّقًا بذات الله ﷻ، ليس لهم به عِلْمٌ، وأصلُ ﴿بِهِۦ﴾ أن يكون بعد ﴿عِلْمٍ﴾ صفةً له، فلمّا قُدِّم عليه؛ صار حالًا.

تسليطُ النَّفي على المشركين أبلغُ من تسليطه على العلم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 203.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/ 283.

معنى الباء في ﴿بِهِۦ﴾، وعَوْدُ الضميرِ فيه:

تلبُّس المشركين بما قالوا دليلٌ على جهلهم ووهمهم الكاذب

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِهِۦ﴾ للمُلابسةِ، أي: بالذي تلبَّستُم من مَقولةٍ شنعاء، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ عائدٌ إلى المصدر (القول) المأخوذ من الفعل (قالوا)، أي: ما لهم بذلك القول مِن علم[1].

ويجوز أن يكون عائدًا إلى الولد، أو الاتِّخاذ، فضلًا عنِ القولِ، والمعنى: أنَّهم يقولونه عن جهلٍ مُفرط وتوهُّم كاذب، أو تقليد لما سمعوه مِن أوائلهم مِن غيرِ علم بالمعنى الذي أرادوا به، فإنَّهم كانوا يُطلقون الأب والابن بمعنى المُؤثِّر والأثر، أو هو عائدٌ على الله تعالى؛ إذ لو علموه لما جوَّزوا نسبة الاتخاذ إليه[2]، فهؤلاء المعتقدون في الله هذا المعتقد لا علم لهم بما لله سبحانه مِن قدر يتنزَّه به عن الصاحبة والولد، وعن الشَّريك في الملك، وهذا يعني: أنَّ عِلمَهم باللهِ هو علمٌ ناقصٌ، مشوبٌ بالأوهام والضلالات[3].

دلالةُ ﴿مِنْ﴾ وأثرها في المعنى:

كلُّ ما يمكن أن يكون عِلمًا هو تحت حكم النَّفي عنهم

أدخلَ النَّظمُ الجليل حَرْفَ الجرِّ ﴿مِنْ﴾ على النَّكرة في سياق النَّفي في قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾، وجيء بها هنا لتأكيد النَّفي[4]، فيكون النَّفي معها دالًّا على الاستغراق، فهو يتتبَّع كلَّ علم ثم ينفيه؛ حتّى لا يبقى أيُّ شيء يمكن أن يُطلق عليه عِلمٌ، فيثبت لهم الجهل إثباتًا مؤكَّدًا؛ فليس وراء العلم غير الجهل، "أيْ: ما لهم أي علم، بل يرمون القول من غير تفكُّر، ولا تدبُّر"[5].

فائدة تنكير ﴿عِلْمٍ﴾:

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عنِ العلمِ بصيغة التَّنكير في قوله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/ 136، 15/ 251.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل التأويل: 3/ 272.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 583.
(4) السّمين، الدر المصون: 7/ 440.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4487.

تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه لم يكن لهم أيُّ علم، فهو منتفٍ مِنَ الأصل؛ لأنَّ ما ظنّوه وما اعتقدوه لا يمكن أن يتعلَّق العلم به؛ لأنَّ ذلك الاعتقاد منافٍ للحقيقة؛ إذ لا وجود له[1]، فدلَّ الشُّمول في النَّكرة على عمومِ النَّفي واستغراقِهِ.

ليس لهم من العلم شيء إذ اعتقدوا نسبة الولد لله تعالى

فائدةُ جملةِ الحال:

جملة ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ حالٌ من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾ [الكهف: 4]، وفائدةُ ذكر هذه الحال أنَّها أَشْنَعُ في كُفرِهِم، وهي أن يقولوا كذبًا ليستْ لهم فيه شُبهةٌ، فأطلقَ العِلْمَ على سببِ العِلْمِ، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون: 117][2].

أقبحُ الكفرِ الكذبُ من غير شُبْهةٍ

وفي جملة الحال تبكيتٌ، "وتوبيخٌ لهم على تَفوُّهِهِم بكلامٍ يدلُّ على إيغالِهم في الجَهْل والبُهْتان"[3].

الجهلُ والبهتانُ مَظِنَّةُ التقريع

بلاغةُ نفي الشَّيءِ بإيجابه:

ويُسمّى بـ(عكس الظاهر) في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الكهف: 4 - 5]، وهو أن تذكُرَ كلامًا، يدلُّ ظاهرهُ على أنَّه نفي لصفة موصوف، وهو نفيٌ للموصوفِ أصلًا، فاتخاذ الله ولدًا في نفسه محال، فكيف قيل: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾؟ معنى ذلك: ما لهم به من علم؛ لأنَّه ليس ممّا يُعلم لاستحالته، وانتفاء العلم بالشَّيء؛ إمّا للجهل بالطريق الموصل له، وإمّا لأنَّه في نفسه محال لا يستقيم تعلُّق العلم به، فقد ورد الكلامُ على سبيل التَّهكم والاستهزاء بهم[4].

انتفاءُ العلمِ إمّا للجهل، وإمّا للاستحالة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 8.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 251.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 468.
(4) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 15/ 141، وينظر: القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 12/ 10.

فائدةُ عطفِ الآباء على الضَّمير:

انتفاءُ العلم عنِ الآباء يؤولُ إلى بطلانِ تقليدهم

عطفَ النَّظمُ الجليل الآباءَ على الضَّمير في قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْۚ﴾؛ تقريرًا للنَّفي، وتأكيدًا للمعنى، وقطعًا لحجَّتهم؛ إذ قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: 23]، فلمّا كان العلم مُنتفيًا عنِ الآباء؛ فأنَّى لهم أن يُقلِّدوهم، وكيف لهم أن يكونوا جديرين بالتقليد[1]، ويتضمَّن التَّنبيهَ على حرمة أن يقولَ أحدٌ على الله تعالى ما لا علم له به، ولا سيَّما في أمر العقائد وأصول الدّين[2].

سرُّ تكرارِ (لا) في جملة العطف:

الجهلُ في الكفار متأصِّلٌ، وبئس المـيراثُ الضَّلال والكفر

وتكرار (لا) لتأكيد النفي، ونُفي العلم عنهم لعدِّهم مُقلِّدين مُتَّبعين، وكذلك نفيهُ عن آبائهم الذين قُلِّدوا؛ لأنَّهم الذين سهَّلوا تلك الأوهام في نفوسهم، فضلّوا، وأضلّو كثيرًا، وضلّوا عن سواء السَّبيل[3]، وفيه إشارة إلى أنَّ السَّلَفَ والخَلَفَ سواءٌ في الجهل بهذا العلم بالله، فهم جميعًا على غفلة وسَفَهٍ وضلال[4].

نكتةُ فصلِ جملة ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾:

تهويلُ المقولةِ بالإنشاء يقتضي الفصل عن الإخبار

فصَلَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ﴾ عن الجملة السّابقة في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْۚ﴾؛ لما بينهما مِن اختلاف؛ إذ الأولى خبريَّة والثّانية إنشائيَّة، فاستأنف للتَّشاؤم مِن تلك المقولة الشَّنيعة[5]، كما أنَّ في هذا الاستئناف تهويلًا لما سبق ذكرُهُ من سوء مقولتهم وقُبْحها، فوصفها بالعِظَم لتعلُّقها بالكذب على الله تعالى[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 251.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 8.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4488.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 583.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 252.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 8.

إيثارُ لفظِ ﴿كَبُرَتْ﴾ على ما يُقاربُهُ من ألفاظ:

نسبةُ البنوَّة لله تعالى أشنعُ مظاهر الكفر

آثَر النَّظم الحكيمُ استعمالَ لفظ ﴿كَبُرَتْ﴾ دون (عظُمَت)؛ للدَّلالة على أمريْن: كِبَرِ الذَّنب، وعِظَمِ القُبْح، والأصل في لفظ (كبر) الدَّلالة على الضَّخامة، ويُستعمل للدَّلالة على القوَّة والشِّدَّة في صفةٍ ما مِن الصِّفات، وهو هنا مُستعمل في التَّعجيب مِن كِبَر هذه الكلمة في الشَّناعة بِقَرينة المقام.

وعبَّر النَّظم الجليل بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ بضمِّ الباء للدَّلالة على الذَّمِّ[1] والتَّعجيب، والمعنى: (ما أكبرَها كلمةً!)[2]، "ودلَّ على قَصْد التَّعجيب منها انتصابُ ﴿كَلِمَةً﴾ على التَّمييز؛ إذ لا يحتمل التمييزُ هنا معنًى غير أنَّه تمييزُ نسبةِ التَّعجيب"[3].

وتحريرُ ذلك أنَّ صيغة (فَعُلَ) تفيدُ التَّحوُّل إلى درجة التَّعجُّب، فالمتعجِّب بهذا الفعل ينظر إلى الأصل الذي بدأ منه الفعل، ثم بلغ هذا المبلغ، تقول: (ما أكبر هذه الكلمةَ!)، فتصفها بالكِبَر الآن، أمّا قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾؛ فإنَّ معناها: أنَّ هذه الكلمة قيلَت، فبَلغَت مِنَ الكِبَر درجةً عظيمةً يُتعجَّبُ منها، أي: إنَّ هذه الكلمة خرجت مِن أفواههم، واتَّسعت، وأضلَّت خلقًا كثيرين، فتُعجِّبَ مِن هذه الكلمةِ كيفَ بلغتْ هذا الكِبَرَ[4].

نكتةُ إطلاقِ لفظ ﴿كَلِمَةً﴾ مرادًا بها الكلام:

شهرةُ المقولةِ وتكرارُها يُنزلها منزلةَ الكلمة الواحدة

أطلقَ النَّظمُ الجليلُ لفظَ الكلمة على الكلام في قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ جريًا على ما شاع من استعمال العرب لذلك، كما قالوا: كلمة التَّوحيد عن قول: لا إلهَ إلّا اللّهُ، فهذه

(1) مجموعة من المؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1290.
(2) السّمين، الدر المصون: 7/ 440.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 252.
(4) السامرائيّ، معاني النحو: 4/ 289.

الكلمة مقصودٌ بها مقالتهم الشَّنيعة "في الكفر والافتراءِ لما فيها من نسبته سبحانه إلى ما لا يكادُ يليقُ بجناب كبريائِه"[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في وصف الكلمةِ بالكِبَرِ:

تفظيعُ معنى الكلمة تشنيعٌ على اعتقادِهم

يرى الشَّريفُ الرضي أنَّ "وصْفَ الكلمةِ في قوله سبحانه: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ بالكِبَرِ استعارةٌ، والمُراد أنَّ معناها فظيعٌ، وفحواها عظيم، وتقدير الكلام: كبُرتِ الكلمةُ كلمةً"[2] شنيعةً اعتقدوها، وصرَّحوا بها إيمانًا بها وتسليمًا.

سرُّ نعتِ الكلمة بالجملة بعدها:

تلفُّظ كلمةِ الكفر كافٍ في بيان شناعة الجُرم

وصف النَّظم الجليل لفظَ الكلمة بالجملة الفعليَّة في قوله تعالى: ﴿كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾؛ للدَّلالة على تشنيع جُرأتهم واستعظامها، وإظهار وقاحتهم في قولها والتَّفوُّه بها[3]؛ "لأنَّ المعنى: كبر خروجها، أي: عظُمت بشاعتُه وقباحته، بمجرَّد التَّفوُّه، فما بالك باعتقاده"[4].

إيثارُ لفظِ ﴿تَخْرُجُ﴾ دون ما يُقاربه:

صرَّحوا بمقولة الكفر لفظًا ونطقًا

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ الخروج في قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾؛ لأنَّ الخروج يدلُّ على البروز، خرج خُروجًا: بَرَزَ من مَقرِّه أو حاله[5]؛ وذلك للدَّلالة على كونها لفظةً مِنَ الألفاظ الَّتي قد صدعوا بها، فهي بارزةٌ ظاهرة تخرجُ مِنَ الأفواه خروجَ الذَّوات مِنَ المقرِّ، والتَّعبير بالخروج مبالغة في زيادة قُبْحِ التَّكلُّم بها، فإذا كان خروجها مِن أفواههم قبيحًا؛ فإنَّ لَوْكَ ألسنتهم لها أقبحُ.

سرُّ استعمالِ صيغة المضارع (تخرُجُ):

آثرَ النَّظمُ الجليل التَّعبيرَ بالفعل المضارع عن خروج الكلمةِ في قوله

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 204.
(2) الشريف الرضيّ، تلخيص البيان في مجازات القرآن: 2/ 205.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 204.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 7/ 6.
(5) الرّاغب، المفردات: (خرج).

تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ تصويرًا لحالهم أثناء التَّفوُّهِ بتلك المقولة الشَّنيعة، فصوَّر فظاعة جرأتهم على النُّطق بها؛ إذ لم يكفهم حضورُها في نفوسهم، وتردُّدها في أذهانهم، حتّى تلفَّظوا بها، وقد تكرَّر منهم ذلك التَّلفُّظُ، واستمروا عليه بما أشار إليه التَّعبيرُ بالمضارع[1]، فهو يستحضر صورةَ الخروج تعبيرًا عن فظاعة تلك المقولة.

تصويرُ الفعلِ الشَّنيع كشفٌ لعتوِّهم وجرأتهم

دلالةُ التَّعبير بشبه الجملةِ مِنَ الجار والمجرور:

علَّقَ النَّظمُ الجليل الفعل ﴿تَخْرُجُ﴾ بشبه الجملة مِنَ الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾؛ للدَّلالة على كون الكلمة خارجةً من أفواههم، وتأكيد كونهم تلفَّظوا بهذه المقولة، فهذا الكذبُ الشَّنيع قد بدر منهم، وقد قالوا كلمةَ الكفر، وفيه "إيماءٌ إلى أنَّ مثل ذلك الكلام ليس له مصدرٌ غيرُ الأفواه؛ لأنَّه لاستحالته تتلقّاه، وتنطق به أفواههم، وتسمعه أسماعهم، ولا تتعقَّلُه عقولهم؛ لأنَّ المحال لا يعتقده العقلُ، ولكنَّه يتلقاه المقلِّد دون تأمُّل"[2]، فهي تخرج مِنَ الأفواه غيرَ محكومة بميزان العقلِ.

مصدرُ أقوالهم الأفواه لا العقولُ

سرُّ فصلِ جملة ﴿إِن يَقُولُونَ ...﴾ عمّا قبلها:

فَصَلَ النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله تعالى: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾؛ لأنَّها تأكيدٌ لمضمون الجملة السّابقة في قوله جلَّ شأنه: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾؛ "لأنَّ الشَّيء الذي تنطق به الألسن، ولا تحقُّقَ له في الخارج ونفس الأمر هو الكذب، أي: تخرج من أفواههم خروجَ الكذبِ، فما قولهم ذلك إلا كذب، أي: ليست له صفةٌ إلّا صفةُ الكذبِ"[3]، فلمّا أخبر أنَّهم لا علم لهم بذلك؛ بيَّن أنَّ قولهم كذب؛ إذْ ليس لأحد علمٌ به، فقولهم لا حقيقة له بوجه من الوجوه[4].

النّاطقُ بلا علم جاهلٌ لا يتورَّع عن الكذب

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 9.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 252.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 253.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 9.

معنى ﴿إِن﴾، وسرُّ إيثارها على (ما):

لا يقولون على وجه التَّأكيد في ذات الله تعالى غيرَ الكذب

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بحرف النَّفي ﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ دون النَّفي بـ(ما)؛ لأنَّ النَّفي بـ ﴿إِن﴾ أشدُّ تأكيدًا، وهي أبلغُ في النَّفي؛ فلذا غالب استعمالها أن تأتي بعدها إلّا في الحصر، لما فيها من تأكيد الانتفاء، فيكون القصر بها أبلغَ في تأكيد المضمون، "أي: لا يقولون إلّا كذبًا لا مساغ له من حقٍّ، ولا يقوله مدرك فاهمٌ يعرف حقيقةَ الألوهيَّةِ، ولله في خلقه شؤون"[1].

بلاغةُ القصرِ في حصر قولهم بالكذب:

عقيدة المشركين مبناها على الكذب، فلا يصدرُ منهم غيره

قصَرَ النَّظمُ الجليل قولهم على الكذب في قوله تعالى: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾؛ فنفى أن يكون قولهم شيئًا غيرَ الكذب، فهو قصر غيرُ حقيقيٍّ؛ لأنَّهم يقولون غيرَ ذلك في حياتهم، وإنَّما نفى عموم القول عنهم في شأن الله تعالى، واستثنى من ذلك النَّفي قولَهُمُ الكذبَ[2]، وهو قصرٌ موصوف على صفة، فقصر قولَهم على صفة الكذبِ.

إيثارُ استعمال ﴿يَقُولُونَ﴾ مضارعًا:

قولُهُمُ الكذبَ على الله تعالى لا ينفكُّ عنهم

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل المضارع الدّالِّ على التَّجدُّد والاستمرار في قوله تعالى: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾؛ لأنَّهم قد دأبوا على تلك المقولةِ دهورًا متتابعةً، لا ينقطعون عنها في زمان، يرثها جيلٌ إثرَ جيلٍ، فهو قول دائم متجدِّد.

نكتةُ تنكيرِ ﴿كَذِبًا﴾:

الكذبُ بنسبةِ الولد لله تعالى أشنعُ الكذب ومنتهى القُبح

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن الكذب بالنكرة في قوله تعالى: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ تهويلًا لشأن ما قالوه، فهو كذب عظيم، فما قولهم بأنَّ لله تعالى ولدًا إلّا كذبٌ "لا يكادُ يدخُل تحتَ إمكانِ الصدق

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4488.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 253.

أصلًا"[1]، وتفخيمُ تكذيبهم بهذه المقولة ضرورةٌ؛ لكونه يتعلَّق بذات اللّه تعالى، فهو أفحش الكذب، وأقصى غاية في الشَّناعة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(كَبُرَتْ) و(عظُمت):

كـــبُرَ خـلاف صَغُرَ، والعِظَمُ كِبَرٌ مع قوَّة

(عظم) أَصلٌ يدلُّ على كِبَرٍ وقوَّةٍ[2]، والعظيم قد يكون من جهَة الكَثرَة ومِن غير جهَة الكَثرَة، ولذلك جازَ أَن يوصف اللّه تعالَى بأنَّهُ عَظيم، ولم يوصف بِأَنَّهُ كثير[3]، و(كَبَرَ) أَصْلٌ يدلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ[4]، نحو: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ﴾ [الشورى: 13]، وأمّا قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾؛ ففيه تنبيهٌ على عِظَم ذلك مِن بين الذُّنوب وعِظَم عقوبته[5]، أي: عظمت مقالتهم في الكفر[6]، فالعِظَمُ يدلُّ على القوَّة وعلى الكبر، فلو قال: (عظُمت) مكان قوله جلَّ شأنه: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ﴾؛ لدلَّ على أنَّها تتَّصف بأنَّها قويَّة مع كونها كبيرةً، وليس هذا المرادَ، فليست هي مِنَ القوَّة في شيء، بل هي كبيرة الشَّأنِ في الكفر، تبيينًا لشدَّة قبحها.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 204.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عظم).
(3) العسكري، الفروق، ص: 183.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(5) الرّاغب، المفردات: (كبر).
(6) الإيجي، جامع البيان: 2/ 424.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 29 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-26-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 29 : المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-26-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6484549 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»